مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 06 العدد: 01- (2022) ص152/ 161

التراث الاسلامي قراءة و نقدا، محمد أركون أنموذجا

The Islamic : reading and criticism

Case study : Mohammed Arkoun

د. بلبردوح ثليثة *
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي (الجزائر)
discourd19@gmail.com

د. سعاد عبيدي
جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)
challal.souad@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/11/17
تاريخ القبول:
2021/2/21

الكلمات المفتاحية:
- ✓ التراث؛
- ✓ التأويل؛
- ✓ القراءات الحداثية:

الملخص:

يمثّل مشروع محمد أركون المنهجية الحداثية الجديدة في أبرز تجلياتها، أو كما يصفه البعض بـ "رأس الحداثة" في الفترة الراهنة ؛ أي ما يعرف بالحداثة الجديدة؛ التي تعني القطيعة مع التراث والعناية والاهتمام به في آن واحد، فأركون من أبرز الحداثيين الذين دعوا إلى مراجعة التراث وقراءته قراءة نقدية، فاحصة دون استثناء بما في ذلك النص الديني والتراث الاسلامي. هذا ماسنحاول أن نسلط عليه الضوء في هذه الورقة البحثية، من خلال التطرق إلى المنهج النقدي عند محمد أركون، وأهم أسسه وآلياته.

Article info

Received
17/11/2021
Accepted
21/12/2021

Keywords:
- ✓ *Heritage:*
- ✓ *Interpretation*
- ✓ *Modernists readings:*

Abstract :

The project of Mohammed Arkoun represents the new modernist method in its most prominent manifestations or as it is described by some "The Head of Modernism"(The New Modernism). which means. in the same time. the estrangement with the heritage as well as care about it and interested in it. Arkoun is considered as one of the most prominent modernists. whose plead to review the heritage and read and perceive it in a critical way. without exception including the religious text

*-المؤلف المرسل

and the Islamic heritage . Hence. based on that. this research paper is going to shed light on the critical method of Mohammed Arkoun and its most important basis and mechanisms.

. مقدمة:

يعتبر محمد أركون عينة أساسية في المدرسة الفكرية العربية الحداثية. - رغم أنه لم يكتب بالعربية إلا نادرا- فهو من أهم المؤسسين لقراءة التراث العربي الإسلامي قراءة حداثية ومنهجية بالاعتماد على النقد العلمي الموضوعي بعيدا الاعتبارات والأحكام الذاتية وعن كل الحدود المتعارف عليها بين النقاد لاسيما في دراسة الأديان محدثا بذلك قطيعة إبستيمولوجية ، بعد أن أخضع العقل الاسلامي إلى النقد والتحليل والمساءلة " ليشمل بعد ذلك العقل الدين عموما مبتدئة بالنسق المعرفي الابستمو[1]لوجي منتهية إلى الشق السياسي ، ولا يكتفي البحث بالعرض والوصف ، بل كذلك يحلل وينتقد في إطار احترام حقائق الأشياء كما هي (بن علي، 2011، الصفحات 7-8)

وسرعان ما انتشرت أفكاره في الساحة الفكرية العربية وأثّرت في الوعي الحداثي العربي محدثة بذلك إرباكا في الساحة النقدية كون البحث في الظاهرة الدينية يشوبها التعتيم والتقديس وغلبة النزعة العقائدية على النزعة العلمية." يعتبر الدين الذي ينتهجه الناس مجموعة من المعطيات البطريركية التي خلفها الفقهاء وأسبغوا عليها صبغة القداسة" (العفاني، 2004، صفحة 134)

فمشروع محمد أركون في مجمله مبني بالأساس على التعرف على الظاهرة الدينية حتى تحل في أفق أوسع من الأفق الإسلامي، متوسلا المفاهيم العلمية والسوسيولوجية والأنثروبولوجيا والألسنية والتاريخية، لاسيما وأنه يتم الاكتفاء بالنظر إلى الإسلام كدين و كإطار فكري دون مراعاة ما حدث و ما يحدث في الأديان الأخرى، لتحقيق نهضة إسلامية حديثة بعيدة عن الفكر الدوغمائي وقائمة على التفكير العلمي البحت.

فهل استطاع محمد أركون أن يؤسس مشروعا نقديا حداثيا يمكنه من دراسة التراث الإسلامي متجاوزا قيود المدرسة النقدية الكلاسيكية.؟

كيف تعامل محمد أركون مع النص التراثي الإسلامي وإلى أي مدى تمرد على نقاد عصره ؟

ماهي استراتيجية محمد أركون في قراءة ونقد التراث الإسلامي و الخطاب الديني ؟

1. أساسيات المنهج الأركوني:

يعتمد محمد أركون على المنهج التاريخي التراجعي أو القراءة التنازلية التي تبدأ من الحاضر وتحفر " في طبقات الفكر والتراث والمخيال نزولا عميقا إلى الماضي في نزوع واعٍ إلى فهم الوحي الإسلامي وإدراك أبعاد السلوك والعقليات التي يجسّدها العرب المسلمون ... . " (الخراط، 2013، صفحة 149)

لقد تجاوز أركون مجرد نقد الأنظمة المعرفية التي تجلّت في التراث الإسلامي، كما هو في مشروع محمد عابد الجابري، إلى نقد الوحي ذاته أو ما يسميه أركون بالنص المؤسس. لقد وصلت حدود نقده إلى المسكوت عنه في التراث المعرفي الإسلامي وقال بوجوب إخضاع النصوص التأسيسية للمناهج والأدوات النقدية، بحيث يسقط أركون هنا، التجربة الغربية في تطبيقها للمنهج العلمي والنقدي على نصوص الكتاب المقدس.

1

لقد وجد المحدثون في الخطاب الأركوني لغة جديدة وجريئة في المشاريع النقدية التي قدّمها، يقول علي حرب: "الحق أنني مذ قرأت نصه لأول مرة، شعرت أنني إزاء خطاب مختلف عن الخطابات السائدة، جديد كل الجدة إن في المصطلح والأداة، أو في المنهج والرؤية، أو في التوجّه والرهان". (حرب، 2005، صفحة 118)

اعتمد أركون في مشروعه على آخر المفاهيم والأدوات المنهجية التي أنتجها البحث الأوروبي وقام بنقلها إلى حقل التراث الإسلامي وهذا ما جعل كبار النقّاد العرب يقرؤون له بأسبقية الإطلاع على تلك المفاهيم والمصطلحات، وكيف اشتغل بها داخل حقل التراث الإسلامي، على اعتبار أنّه استعمل أدوات بحثية ومصطلحات نقدية انبهر بها القارئ العربي وجعلته يشعر بأنه إزاء "لغة" جدية تختلف تماما عن "اللغة" المستعملة غالبا، لغة أقرب ما تكون إلى "المخبر العلمي". و قد أكّد أركون التزامه بالبحث العلمي ورهاناته ، من أجل تحرير العقل من الترهات والطابوهات والمسلمات والغيبيات التي لم تجلب على العالم العربي الإسلامي إلا البؤس والتقهقر. يقول : الواقع إنّ العقل الدوغمائي أغلق ما كان مفتوحاً ومنفتحاً، وحوّل ما كان يمكن التفكير فيه، بل ويجب التفكير فيه، إلى ما لا يمكن التفكير فيه" (أركون، قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟، 2000، الصفحات 6-9)

أي استعمال المناهج العلمية والتأويل المنهجي وعدم التشبث بالإديولوجيا الدينية المزيفة التي تغيب العقل بحجة المحافظة على التراث جاعلة من الدين جزء من التقليد والعرف فتعرقل بذلك أية وثبة من شأنها النهوض بالمجتمعات العربية والإسلامية على حد سواء" إن علوم الإنسان قد أقامت تغيرا جذريا في ظروف ممارسة الفكر العلمي في الغرب وبالكاد باشر الفكر الإسلامي بالشعور بعواقب الهزات التي بدأت منذ القرن السادس عشر بخلق الفكر الحديث في أوربا أما الفكر الإسلامي فما زال إلى حد كبير يستند إلى معرفة قروسطية يتداخل فيها الأسطوري والتاريخي التراثي" (هاربير، 2001، صفحة 60) ، هذا ماعبر عنه محمد أركون بقوله : ينبغي أن نحاول فهم بنية الساحة الدينية والطريقة التي تمارس عليها دورها في المجتمعات البشرية المختلفة. وبهذا المعنى فإنّ كل ما ندعوه بالأديان (أي كل الأديان دون استثناء) ليست إلاّ عبارة عن أنماط للصياغات الطقسية والشعائرية التي تساعد على دمج الحقائق الأساسية وصهرها في أجسادنا، هذه الحقائق التي سوف تتحكم بوجودنا كله" (أركون، العلمنة والدين : الإسلام – المسيحية -الغرب، 1993، صفحة 24)

فأركون يقصد الاستفادة من المنهجيات والمفاهيم الجديد التي إذا ما طبقت على دراسة الظاهرة الدينية، تؤدي إلى إثراء التأويل وتعمقه كثيرا. وهو ما يجعل دراسة الظاهرة الدينية مهما كانت، سواء الدين الإسلامي الذي عمل على تطويره ودراسته دراسة خاصة، أوحتى الديانات الأخرى السماوية التوحيدية أو الوضعية الحالية منها أو القديمة. فموقفه واضح في هذا الإطار، وهو القيام بتناول علمي الظاهرة الدينية" (بن حليمة، 2013، صفحة 37)

"وهو يسعى إلى الإحاطة بالظاهرة الدينية معتنقا الاهتمام بالجانب النفسي أو الجانب التاريخي أو الجانب الاقتصاد أو الجانب المعرفي". (بايه، صفحة 6)

يصنف المشروع الفكري لمحمد أركون في سياق النقد التاريخي الذي "ينخرط إبستمولوجيا في العمق"، (أركون، قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟، 2000، صفحة 30) ويتميز بشموليته وتشعّبه لأنه مبني على منهجية متعددة التخصصات (La méthode pluridisciplinaire) . حيث يدرس علم الأديان علاقة الإنسان بالمقدس وما ينتج عن ذلك من ممارسة دينية وتراث شفهي أو مكتوب، في حين يدرس تاريخ الأديان الديانات القديمة والجديدة واكتشاف الإختلاف والتشابه الموجود بينها ويكون اختصاص الإثنوغرافيا والإثنولوجيا دراسة العقائد والطقوس، والعادات.. وكلها مجالات خصبة لعلم الاجتماع وعلم اللغة وعلم التاريخ، حيث تمتاز طبيعة المقاربة المنهجية عند أركون بتنوع أساليبها وأدواتها وحتى المفاهيم التي تعمل على إعادة انتاج المعاني إنها مجتمعة تشكل الجوانب الأولية الهامة في استراتيجيته

النقدية، التي تبني حدودا للظاهرة الدينية ويصبح مجال البحث يتعلق بتاريخ الإنسان وواقعه، فتنخرط الظاهرة الإسلامية في عملية استيعاب مكاسب المعرفة المعاصرة.

2. ميدان النقد عند أركون :

تمركزت مفاهيم الفكر النقدي في أعمال محمد أركون كأدوات ووسائل تعمل على محاصرة الأفكار القطعية واليقينية كما نجدها في النصوص بمختلف أشكالها وصورها النص التراثي، نص القرآن، نصوص الفكر ووصولا إلى النصوص السياسية والفقه والتصوف، وبشكل عام نصوص الفكر الإسلامي المختلفة والمتعددة ، فتترسخ بالتالي العقلانية والموضوعية في نظرتنا للتراث فتصبح معارفنا نسبية. حيث إنه يطبق النقد كمنهجية و "وسيلة لمحاصرة نظام النظر الإسلامي الوسيطي وكشف منطقه الداخلي ومحدوديته النظرية والتاريخية وهي تتأسس ... بواسطة عمليات الاستيعاب الإيجابية لمكاسب العقل المنهجي المعاصر..." (عبداللطيف، صفحة 174)، حيث يبرز مشروع نقد العقل الإسلامي، أهمية الروح النقدية في الفكر والعالم المعاصر، وتحليلاته، ومصنفاته ومقارباته والتي صنعت قطيعة جذرية ، مع الصور والأشكال القديمة التي لا تزال في رأي أركون متصلبة في أذهاننا تهيمن على قراءاتنا وأساليبنا في التفكير، هذا الأخير الذي يتصوره أركون كالسجين والمحاصر، محكوم بأغلال العقل الاسلامي المتشكل في العصور الوسطى .

فالإسلام " أصبح يشكل ملجأ للهوية بالنسبة للكثير من الشعوب والأفراد المقتلعين من جذورهم، كما أنه يشكل مأوى لكل الأنماط الناقمين الذين يعيشون في مجتمعات صودرت فيها الحريات المدنية..." (أركون، معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، 2001، صفحة 76) .

فميدان النقد عند محمد أركون ينصب بالدرجة الأولى على مجال القارة التراثية، ويتجه لتفكيك الذاكرة التراثية والعقل التراثي الذي لا يزال مهيمنا على مجال الفكر العربي الإسلامي المعاصر، إن العناية بنقد آليات عمل العقل الإسلامي، ونقد الظاهرة الإسلامية والحدث الإسلامي بلغة أركون يعني " ترتيب ملامح مدخل من المداخل المساعدة على إعادة بناء الذات بإعادة فهم الظاهرة الإسلامية في مختلف تجلياتها وأبعادها ... "[2]، إنه يدعو وبشكل صريح إلى تجاوز القراءة التمجيدية للذات ولتراثها وهو يلح على مسألة إعادة كتابة التاريخ السياسي العربي " تاريخ الوقائع وتاريخ النظر، فلم يعد التاريخ المتداول يفي بالغرض، بل إنه مارس ويمارس عمليات تضليل تجعلنا أبعد ما نكون عن معرفة صيرورة ذاتنا التاريخية، والذين لا يملكون تصورا عن صيرورتهم في الزمان لا يستطيعون التفكير في مصيرهم السياسي ... الكتابة التاريخية هنا تشكل مناسبة للتفكير في المستقبل ..." (أركون، قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟، 2000، صفحة 22) ، إذ يستلهم محمد أركون ، مفاهيم وفرضيات العلوم الإنسانية في النظر إلى الظاهرة التراثية، ويوظف مكاسب الفكر الاجتماعي لمقاربة الإسلام في تاريخه الحي ونصوصه الموصولة بقضايا المجتمع. إنها إرادة في النقد الذاتي تضع الذات التراثية على محك النقد مستخدمة الآليات المنهجية الحديثة التي تمنحنا الوسائل والأدوات المناسبة لكشف وتفكيك مظاهر الظاهرة الإسلامية ومستوياتها المختلفة

إن هذا العمل الجاد عمل على استبعاد التغني بأمجاد الإسلام من أجل المساهمة في تعديل نظرتنا لمكونات ذاتنا التاريخية.

وهي جرأة كبيرة جلبت له العداء والتهجم بل واتهم بالكفر والزندقة والمروق عن الدين والخروج عن الملة ، كما في وصف أحد علماء الأصول له، حيث يقول: " وهو علمان –ويقصد أركون – يدعو إلى التعامل مع الأسلام و القرآن والسنة

بالمقاييس الغربية، وبالاستفادة من المعطيات التي خلفها ماركس ونيتشه وغيرهما، ويعتبر الدين الذي ينتهجه الناس مجموعة من المعطيات البطريركية التي خلفها الفقهاء...هذا الكذاب الأشر" (العفاني، 2004، الصفحات 134-137)

فالجدير بالذكر أنأغلب اللذين انتقدوا محمد أركون وهاجموه لم يدركوا أن قد باعد بين الإسلام والظاهرة الإسلامية، إنه يهدف إلى إقامة مصالحة معرفية بين الإسلام ومنجزات الفكر وعلوم الإنسان، وهكذا تطرأ على الموروث لغة جديدة لا تكتفي بالحماس الإيديولوجي الرافض، لغة تعمل على تأسيس خطاب جديد* ولكن هذه المرة بطريقة معرفية وأفق غير محدود.

على العموم يقوم الاختيار النقدي في أبحاث أركون على مبادئ أهمها:

أ. ليس هناك حقيقة فوق التاريخ فالحقيقة تهم الكائن المشخص في التاريخ، فتصبح الخاصية الإلهية للشريعة على سبيل المثال إحالة إلى التصور الذهني الذي بلوره التفسير وعلم الكلام وشكلته تقنية إنجاز القوانين والتشريعات في التاريخ.

ب. ترتبط الحقيقة بالسلطة وذلك باعتبار أنها مسألة اجتماعية تاريخية محكومة بطابع الصراع والتوتر الذي يولد الحقائق المتناقضة ويتجاوزها.

ج. الإنسان هو الذي يجسد ويرسخ ويطور الحقيقة التي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الذكاء والإرادة والقدرة على التجاوز.

من هنا بدأ أركون في إنجاز أبحاثه في مجال الإسلاميات التطبيقية فـ " يخضع القرآن لمعيار النقد التاريخي المقارن وللتحليل اللساني والسيميائي، وكذا للتأويل الفلسفي المرتبط بإنتاج المعنى وإعادة إنتاجه..." (عبداللطيف، صفحة 187)

فالتأويل أداة لتحليل المفاهيم وقراءة التراث وكشف كنهه وسبر أغواره واستكشاف مداراته وآفاقه إنه "طريق لدعم اليقين الإيماني بأصول الإعتقاد الديني ، وسبيل لإزالة الشبهات عن طريق اليقين لكي يزداد رسوخا ، وليس سبيلا لنقص هذا الإيمان ولا لتفريغ النص الديني من الدين كما هو حاله في الهيرمينوطيقا الغربية " (عمارة، 2006 ، صفحة 59)

حيث يركّز محمد أركون على ضرورة تفهم القرآن-كلام الله- و الذي يفتح للبشر – وللمؤمنين بالخصوص- آفاقا للتدبر و التفكر و التفقه و التعقل، حيث يشدّد على عدد المرات التي تكررت فيها "أفلا تتدبرون" و "أفلا تعقلون" في القرآن الكريم لكن هذا النوع من التفكير المتوسع تم - حسبه- تهميشه وتضييق مجالاته.

3. طبيعة المنهج الأركوني:

يعترف أركون بصعوبة المنهج الذي يقترحه، خصوصاً أنّ ما يطرحه ليس مألوفاً استخدامه بعد في دراسة النص الديني والتراث، لذا يقرّ بصعوبة كبرى في تأمين الربط بين التاريخ الاقتصادي من جهة والتاريخ الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي من جهة أخرى، وذلك لأنّ العلاقات بين هذه المستويات هي علاقات غير مباشرة تستوجب التمحيص لإدراك العلاقات الخفّية غير المباشرة وغير المرئية في ما بينها، وهو أمر يفتح على دراسة التفاعلات والتداخلات القائمة بين هذه المستويات.

عمل أركون منذ عقود على قراءة مختلفة ومغايرة عن السائد للنص الديني والتراث الإسلامي، حيث أعطى عنواناً لمشروعه الفكري:"نقد العقل الإسلامي". على غرار أمثاله من دارسي النص الديني والتراث، " " مفهوم هذا العقل وخصائصه ، كيفية اشتغال هذا العقل بموضوعه، إنجازات هذا العقل المعرفية آلياته و وسائله ومناهجه ، علاقة هذا

العقل بموضوعه، إنجازات هذا العقل المعرفية، ظهوره في التاريخ، مراحل تطوره، أهم التغيرات التي عرفها، وذكر خصائصه وإبرازتجلياته وأخيرا تحديد إمكانياته وحدوده المعرفية." (بن علي، 2011، صفحة 11).

---

* "حول الحدث الإسلامي" بخطاب واقعي عقلاني لا رومانسي وجداني فنتعرف على ذاتنا من جديد.

وهو بذلك يدعو إلى قيام منهج علمي جديد قائم على التأويل والتفكيك والخروج عن العادي والمبتذل قصد استنباط الأحكام والمقاصد الصحيحة يقول أركون في هذا الصدد: " إن القراءة التي أحلم بها هي قراءة حرة إلى درجة التشرد والتسكع في كل الاتجاهات، إنها قراءة تجد فيها كل الذات بشرية نفسها سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة " (أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، 1991 ، صفحة 76)

واعتمد أركون على ركائز أساسية، بنى عليها مشروعه النقدي تمثلت في :

أ. نقد العقل الديني :

شكّل المنهج الذي استخدمه أركون في نقد العقل الديني، والإسلامي منه خاصة، حلقة مركزية في مشروعه النقدي ومجمل كتاباته، بحيث يصعب فصل المنهج عن الأهداف التي أراد الوصول إليها. لقد استفاد أركون من وجوده في الغرب واطّلاعه على التطّور الذي توصلت إليه المناهج العلمية في دراسة التاريخ المتعدد الجوانب، وهي مناهج لم يسبق أن تعرّف إليها العقل العربي قبل أركون، بشكل دقيق وعميق.

يشير أركون في مقدّمة كتابه "قضايا في نقد العقل الديني" إلى جملة الصعوبات التي تواجه قراءة الفكر الإسلامي، حيث يرى "إنّ الصعوبة الكبرى التي تواجهنا تكمن في كيفية تحرير العقل النقدي من القيود الإبستمية والإبستمولوجية التي فرضها العقل الدوغمائي على جميع الممارسات الفكرية والثقافية التي قام بها الفكر البشري منذ انتقاله من المرحلة "البدائية" أو "الوحشية" (بحسب مصطلح كلود ليفي ستراوس) إلى المرحلة الزراعية المدنية. ونعلم أنّ هذه الأخيرة معتمدة على التضامن الأيديولوجي بين الدولة والكتابة والثقافة المكتوبة العالمة (الفصحى)، والشيفرة الأرثوذوكسية لتدبير العقول والأفراد والجماعات ." (أركون، قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟، 2000، الصفحات 6-9).

فقد انخرط أركون في قراءة النص الديني والتراث الإسلامي معتمداً منهجا في القراءة، يقوم على ربط الوثائق والنصوص بالمرحلة الزمنية التي كتبت فيها وموصولة بتعيين طبيعة القوى الاجتماعية السائدة، والحركات الفكرية المتكوّنة في تلك الفترة، ممّا عنى لديه أنّ شرط نقد العقل الإسلامي يكون في استخدام هذه المنهجية التاريخية في التدقيق بكل المعطيات التاريخية. إنها دعوة إلى خلق علاقة جديدة بالتاريخ، علاقة قاعدتها الارتباط بالواقع وبالوجود

فقراءة النص الديني والتراث الإسلامي حسب أركون، تقوم على:

- ربط الوثائق بالنصوص
- عدم الاكتفاء بتجميع المعطيات والمعلومات
- الدخول في عملية التفكيك لاستخلاص النتائج المرجوّة.

مؤكدا على أن تفكيك الظاهرة الإسلامية يكون عن طريق تطبيق القراءة التاريخية لها ثم تقديم إطار فعلي لتحليل وتأويل جميع أشكال الخطاب الإسلامي المعاصر، وعلى جميع مستوياته.

يشير أركون في كتابه "نزعة الأنسنة في الفكر العربي"، إلى هذه الوجهة حيث يقول : "ينبغي على المنهج أن يدرس الظواهر من خلال التداخل والتفاعل المستمر بين نسق الروح ونسق الأشياء المادية الواقعية. فالتأمّلات الأكثر تجريداً والأكثر مجانيةً من حيث الظاهر، لها دائماً علاقة مع بواعث فردية وجماعية شديدة المحسوسية والواقعية. ولحمة التاريخ منسوجة من هذه العلاقات المادية والروحية. وإذا ما أراد المؤرّخ أن يعيد كتابتها في كلّ واقعيتها النابضة بالحياة، فإنّ عليه ألاّ يعطي الأولوية لأيّ عنصر من العناصر الداخلة في التركيب، فكلها تستحقّ الاهتمام" (أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي- جيل مسكويه والتوحيدي ، 1997، صفحة 260).

يعتبر نقد العقل الإسلامي الحلقة المركزية لمشكلة المجتمعات العربية والإسلامية، لأنّ العقل العربي نفسه لا يزال عقلاً دينياً، كما أنّ العقل اللاهوتي الموروث منذ مئات السنين لا يزال يهيمن على الثقافة الإسلامية والعربية على السواء.

يزداد الأمر إلحاحا من خلال ما تقدّمه المجتمعات العربية والإسلامية من خلع القدسية على الممارسات الأكثر دنيوية ومادية، وتعيين الحلال والحرام فيها وفق اجتهادات لا حدود لها، و ربطها باسم الله والنبي (عليه الصلاة والسلام) من أجل أن تحظى بالمشروعية والقداسة المطلقة. إن تطبيق المنهج التاريخي على التراث الإسلامي اعترضته في السابق عوامل موضوعية كانت تؤجل البحث فيه لصالح تغليب الصراع من أجل التحرّر الوطني والاستقلال القومي والنضال ضدّ الاستعمار بأشكاله المتعددة، و كان التراث أبرز العناصر المستخدمة في هذه المعركة الوطنية القومية بوصفه(التراث) واحداً من عوامل التحرّر.

وبعد حصول الاستقلالات، توجهت الأنظمة إلى محاربة الفكر النقدي والعقلاني، و شجعت الفكر الأصولي المحافظ تحت حجة الدفاع عن التراث والهوية. إذن تعرف المجتمعات العربية، حسب أركون، منذ عقود حلفاً مقدساً بين المؤسسة الدينية التي تقوم بوظيفة الفتاوى لما تقول به السلطة، وبين السلطة الرسمية الداعمة لمتطلّبات هذه المؤسسة الدينية التي يقع الحجر على الفكر النقدي للتراث الإسلامي في رأس أولوياتها. لهذا السبب نجد أنّ السلطة قد استندت زمنا طويلا في الماضي على الدين، الذي كان يمثل الحقيقة المطلقة التي تفرض نفسها على الجميع، وإذاً على السيادة العليا التي تجعل السلطة السياسية مقبولة من البشر، كما يؤكّد أركون.

ويستكمل أركون نظرته لموقع الدين بالقول: " إنه عندما نجسّد الحقائق فينا بالمعنى الحرفي لكلمة التجسيد، أي عندما نصهرها في أجسادنا، فإنها تصبح مرتبطة كليا ونهائيا بكينونتنا العميقة. وتصبح بالتالي مرتبطة بشبكة الإدراك التي سوف تتحكّم منذ الآن فصاعداً بكل وجودنا وسلوكنا. على هذا المستوى العميق والجذري ." (أركون، العلمنة والدين : الإسلام – المسيحية -الغرب، 1993، صفحة 24).

"لأن الدين من أكثر الأبعاد الأنثروبولوجية حضورا في الإنسان، فغاية المفكر كانت " الكشف عن السيرورة العقلية والتاريخية التي شكّلت الفضاءات المعرفية ورُؤى العالم المرسّخة بواسطة الأديان على مرّ التاريخ" (الخراط، 2013، صفحة 348).

ب. القطعية:

قدّم أركون مجهوداً كبيراً عن طريق بلورة مفهوم القطعية وتأطيره. ويأتي هذا الجهد في سياق العنوان الكبير(التراث) ، وقد وجد أركون أن الفكر الإسلامي المعاصر في حاجة ماسّة إلى أن يُدرك معنى القطعية المعرفية ليتمكن من الانتقال من مرحلة الإنتاج الأسطوري والاستهلاك المخيالي للمعاني، إلى مرحلة الربط بين المعنى والتاريخ في كل ما يطرحه من مشاكل دينية أو فلسفية أو ثقافية. ولكن ما يعيبه على هذا الفكر هو عدم إقراره بهذه القطيعة، انطلاقاً من رفضه أيّ علاقة مع الفكر العربي وإصراراه على خصوصية إسلامية وأصالة عقلية وعلمية مطلقة، بحيث أنه يعتقد اليوم بأنه في غنى تام عمّا أبدعه التفكير الغربي والبحث العلمي الحاصل خارج دائرة المعارف الإسلامية.

وبطبيعة الحال فإن مفهوم القطيعة المعرفية عند أركون يختلف عنه عند الجابري والعروي وغيرهما من المفكرين العرب المعاصرين الذين استخدموا هذا المفهوم عند قراءتهم للتراث. فمقارنة أركون النقدية والتفكيكية تنطلق من قراءات خاصة لها إشكالياتها وأدواتها وطرائقها المميزة، والتي حددت طريقة فهمه للتراث ولأنظمة الفكر المنتجة له. فقد نظر إليه نظرة نقدية

ولكن ليس بالمعنى السلبي للنقد، وهو حينما يقدّم للقارئ مقاربته الخاصة لمفهوم القطيعة، فإنه لا يقصد بها الانفصال أو التخلّي النهائي عن التراث أو الدعوة إلى نبذ ما أنتجه القدماء من أفكار ومعارف ونظريات وعلوم، بل رأى أن القطيعة

تبدو نتيجة حتمية أو منطقية للتطور التاريخي العام في مجتمع ما أو بيئة معينة، إمّا لأن البنيات الاجتماعية وأطر إنتاج السلطة والمعرفة قد انحلّت وتفككت، وإمّا لأنها تضخمت وازدهرت وقفزت قفزات أبعد وأكتسبت وسائل علمية جديدة أصلح وأغزر.

كما اتسمت نظرته النقدية تلك بالشمولية والكلية فلم يهمل في قراءته لتراث شيئا -لا مركزي ولاهامشي- ، وزاد على ذلك بأن أخضع نمطَي التراث، التراث الشفهي والتراث المدوّن، أو الثقافة العالمة أو المكتوبة، لاستراتيجيته النقدية. وهذا هو الخط المنهجي الذي يميز مشروعه النقدي عن مشروع الجابري، الذي توقف في نقد العقل العربي عند حدود الثقافة العالمة حصراً. بينما ذهب أركون إلى ما هو أبعد من ذلك في خياره المعرفي، أي إلى العقل الإسلامي والوعي الإسلامي، بشقيه العالم والشفاهي. لأن التراث يشكل وعي العربي مثلماً يشكل وعي المسلم، ولأن المخيال العربي الإسلامي يتحرك داخل منظومة تراثية واحدة.

وقد جعل أركون النقد استراتيجية مُستمرة في قراءة التراث، وربط هذا النقد ربطاً محكماً مع مفهوم القطيعة، لتتحدد تالياً معالم المنهج الذي يطبقه ويكون جديراً بتحقيق أهداف النقد والتفكيك الذي يذهب إلى أبعد مدى يمكن الوصول إليه. الأمر الذي يُنتج في الخلاصة نوعاً من القراءة العلمية الإبستمولوجية للتراث من شأنها أن تكشف عن المعنى والحقيقة فيه، وتكشف عن الكثير من السياجات المغلقة التي تحاصر الحقيقة.

القطعية إذن مزدوجة عند أركون، فهناك قطيعة أولى مع المنهج الذي يُستعمل من جانب الباحث لقراءة التراث وتفكيكه وتأويله، ويُقصد به هنا منهج الاستشراق الوصفي أو الفيللوجي وأيضاً المنهج الكلاسيكي الإسلامي، الذي يكتفي بالسرد والوصف الخطي للفكر والتاريخ الإسلاميين، من دون التدخل، والتعرية، والنقد، واستبدال استراتيجية منهجية تعتمد على التكاملية أو التعددية في المناهج الإسلامية المعاصرة به، وهي التي أوحت لأركون بفكرة منهجية دعاها "الإسلاميات التطبيقية".

ثم هناك قطيعة ثانية ضرورية تكون مع نوع من الخطاب الإسلامي الذي يتبنى حقيقة ثابتة وراسخة تستمد مشروعيتها من القاعدة الاجتماعية، وترسخ تاريخياً بما يدعوه أركون بـ"الأرثوذكسية"، أو الصراطية، التي هي حالة من الدوغمائية في الاعتقاد والفكر، تكون نتيجتها استبدال نوع آخر من الحقيقة بهذه الحقيقة، هذا النوع هو الحقيقة العلمية التي يكشف عنها المنهج والتفكيك والنقد، ويقدمها كما هي في صيرورتها وتاريخيتها ونسبيتها.

ج. الإسلاميات التطبيقية:

اقترح أركون تأسيس منهج علمي جديد يعرف بـ (الإسلامولوجيا) أو الإسلاميات التطبيقية، قياسا على ما يعرف في العلوم الاجتماعية بـ (الأنثروبولوجيا التطبيقية)، واعتبرها بديلا علميا وعمليا عن:

- المعرفة الكلاسيكية التقليدية التي ورثناها عن الأصول القديمة،
- المعرفة الاستشراقية الوضعية، التي غلبت على تحليلاتها المركزية الثقافية.

وجاء تأسيسها بغية محاصرة الخطاب الديني محاصرة علمية عن طريق تفكيكه وامتلاك المعنى الكلي فيه، أسوة بتلك المنهجية التي طبقت على النصوص المسيحية و أخضعت النص الديني لمحك النقد التاريخي المقارن والتحليل الألسني التفكيكي و للتأمل الفلسفي المتعلق بإنتاج المعنى وتوسعاته و تحولاته. حيث يقول في هذا الصدد، " فهذا العلم الذي دشنته، قبل بضع سنوات، يهدف إلى قراءة ماضي الإسلام وحاضره انطلاقا من خطابات المجتمعات الإسلامية والعربية وحاجياتها الحالية" (أركون، الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد، 2012، الصفحات 35-36). يضيف مترجمه وشارحه هاشم صالح في تعريف الإسلاميات التطبيقية بقوله " يقصد أركون بالإسلاميات التطبيقية تلك المنهجية الجديدة التي اخترعها هو

شخصيا لكي يتجاوز منهجية الإسلاميات الكلاسيكية الخاصة بالمستشرقين بعد أن يأخذ كل ما هو مفيد منها". (أركون، الفكر الإسلامي. نقد واجتهاد، 2012، صفحة 197)

هذا المشروع الذي انطلق منذ حوالي أربعة عقود ابتداءً من كتابه (الإنسية العربية في القرن الرابع الهجري) الذي صدر في بداية سبعينيات القرن الماضي (في شكل أطروحة دكتوراه) مرورا بعدد من الكتب على امتداد عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي والعقد الأول من هذا القرن، والتي ترجمها في معظمها هاشم صالح إلى العربية.

تمثل تلك المؤلفات كلها، حلقات في مشروع واحد هو المشروع الأركوني في قراءة التراث العربي الإسلامي، وفي القلب منه القرآن الكريم، قراءة حداثية ومختلفة عما هو سائد في الثقافة العربية، ووفقا لمناهج وعلوم حديثة في الألسنية الانثروبولوجيا عموما والدينية خصوصا، وكذلك العلوم الاجتماعية والإنسانية خاصة في فرنسا، من قبيل أركيولوجيا فوكو ومفاهيم الرأسمال الرمزي لدى بورديو والتفكيكية من خلال غراماتولوجيا (علم الكتابة) لـ جاك ديريدا، ويمثل هؤلاء حضورا قويا في مشروع أركون سواء بشكل مباشر، أو غير مباشر.

وقد طرح أركون هذا المشروع في الدراسات الإسلامية لكي يهتم به الباحثون العرب و المسلمون عموما، لاسيما كونه مشروع متصل بالبحث في النص الديني بصفة عامة، من خلال توظيف المناهج والمفاهيم الحديثة في الغرب على وجه الخصوص، "وذلك عن طريق زحزحة ميدان الدراسة والتحليل باتجاه علم الألسنيات الحديثة، وعلم النفس التاريخي، والأنتربولوجيا الاجتماعية والثقافية" (أركون، من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، 1993، صفحة 42).

الخاتمة:

لا شك أن أركون استطاع أن يسجّل حضورا فكريا في الساحة الثقافية العربية عامة، وعلى صعيد قراءة ونقد الفكر الإسلامي من زاوية المناهج الحديثة، دون أن يتعارض ذلك مع خصوصية التجربة التاريخية العربية والإسلامية

وعليه، يمكن القول إن أركون يعتبر أحد رموز الفكر الحداثي اللذين نادوا إلى قراءة التراث العربي الإسلامي بجوانبه الدينية قراءة علمية جادة، وبذلك فإن ما قام به يعتبر تدشينا لمرحلة جديدة في كيفية التعامل مع تراثنا بمختلف مستوياته ووجوهه بالاعتماد على منهجيات العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة.

فضلا على ماتقدم ذكره فقد أفضى بنا الوقوف على التفكير النقدي للتراث العربي والإسلامي عند أركون إلى النتائج الآتية:

على صعيد المنهج، اهتم أركون بالتاريخ الوقائعي والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، كما اعتمد في دراسته على منهجية علم النفس التاريخي وعلم الاقتصاد.

تميزمحمد أركون عن نقاد عصره بالتمرد الفكري ضد كل قسر أو إكراه على العقل والفكر، و رفض الإنفصام بين الفكر والسلوك وبين العمل الفكري والمسار الأخلاقي العملي.

ركّز في دراساته على استخدام المنهج التاريخي في القراءة والنقد ودعا إلى تطبيقه على التراث الإسلامي؛

اعتمد "منهجية تعددية" لا تلغي التراث بقدر ما تستفيد منه بعد غربلته ونقده، كما أولى أهمية لدراسة الديانات السماوية وإظهار نقاط الترابط المشترك في ما بينها.

استخدم مناهج جديدة على الفكر العربي، في قراءة الفكر الإسلامي، ما جعلها تتّسم ، لدى الكثير من المتابعين، بصعوبة في إدراك كنهها.

المراجع:

1. أركون ، م .(1991) .*الفكر الأصولي واستحالة التأصيل* .بيروت :دار الساقي.

2. أركون ، م .(1993) .*العلمنة والدين :الإسلام –المسيحية -الغرب* .بيروت، :دار الساقي.
3. أركون ، م .(2012) .*الفكر الإسلامي .نقد واجتهاد* .بيروت :دار الساقي.
4. أركون ، م .(2000) .*قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟* .بيروت، لبنان :دار الطليعة.
5. أركون ، م .(2001) .*معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية*) .ه .صالح ، (.Trad بيروت :دار الساقي.
6. أركون ، م .(1993) .*من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي* .بيروت :دار الساقي.
7. أركون ، م .(1997) .*نزعة الأنسنة في الفكر العربي-جيل مسكويه والتوحيدي* .بيروت :دار الساقي.
8. الخراط ، م .(2013) .*تأويل التاريخ العربي* .الدار البيضاء . المغرب :لمركز الثقافي العربي.
9. العفاني ، س .ب .(2004) .*أعلام وأقزام في ميزان الإسلام* .جدة، المملكة العربية السعودية :دار ماجد عيري للنشر والتوزيع.
10. بايه ، أ .*أخلاق الإنجيل، دراسة سوسيولوجية*) .ع .العوا ، (.Trad دمشق، سورية، :دار كنعان للدراسات والنشر، دار الحصاد.
11. بن حليمة ، م2013) . ، سبتمبر .(الممارسة النقدية عند محمد أركون .*مجلة الحوار الثقافي* ،(2) *2* ،.p. 37.
12. حرب ، ع .(2005) .*الممنوع والممتنع . نقد الذات المفكرة*، .الدار البيضاء . المغرب :المركز الثقافي العربي،.
13. عبدالغني بن علي. (2011). الممارسات النقدية عند محمد أركون "، قراءات في مشروع محمد أركون، أعمال ندوة مخبر الدراسات الفلسفي .الأكسيولوجية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الجزائر 2. القبة، الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع.
14. عبداللطيف ، ك .*أسئلة الحداثة في الفكر العربي :من إدراك الفارق إلى وعي الذات* .بيروت لبنان :الشبكة العربية للابحاث و النشر.
15. عمارة ، م .(2006) .*قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي* .مكتبة الشروق الدولية .
16. هاربير ، ر .(2001) .*العقل الإسلامي أمام التراث عصر الأنوار في الغرب الجهود الفلسفية عند أركون*) .ج .شحيد ، (.Trad سوريا : دارالاهالي للنشر والتوزيع.